عصور - تصنيف ج- المجلد 22/ العدد02 - خاص - أوت 2023
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال:10.54239/2319-022-999-011 (DOI)

ابن الجزّار القيرواني أوّل طبيب أخصائي مسلم
Ibn al-Jazzar al-Qayrawani: the first Muslim specialist

دة. خلوط أسماء*
جامعة ابن خلدون –تيارت-/ الجزائر
asmab301@gmail.com

تاريخ الإرسال:2023/02/19 تاريخ المراجعة: 2023/03/01 تاريخ القبول:2023/07/04

الملخص:

لا يخف على أحد فضل الأطباء المسلمين على العالم كلّه؛ في بناء الأسس العلمية والعملية للطبّ الذي نعرفه اليوم، والتي استفادت منها الحضارة الأوروبية في بنائها للطبّ الحديث، والذي طوّروه عن هؤلاء الأطباء المسلمين كأبي بكر الرازي وابن سينا وابن النّفيس، المعروفين بسبب شهرتهم التي تخطّت العصور، لكننا هنا نتحدث عن أحد الأطباء المسلمين الذي لم نسمع عنه كثيرا وهو الطبيب ابن الجزّار القيرواني، هذا الطبيب الذي عاش في القيروان خلال القرن الرابع الهجري، والذي سبق عصره من خلال ما توصّل إليه في علم الطبِّ، فهو أوّل من قرّر التخصصات الطبية، وهو أوّل طبيب مسلم يكتب في التخصصات الطبية مثل طبّ الأطفال وطبّ المسنّين، كما عدّل القوانين الطبيّة القديمة وطوّرها، وألّف العديد من المصنّفات في العلوم الطبيّة فُقِدَ أغلبها، وقد ذاع صيته وتجاوزت شهرته الآفاق، إلّا أنّ هذا الطبيب العظيم لم ينل حظّا وافرا من الدراسة، كما أنّ معظم مؤلّفاته مازالت مفقودة، والكثير منها ما تزال حبيسة أدراج المكتبات تنتظر من يخرجها إلى النّور.

* د. أسماء خلوط/ جامعة تيارت

الكلمات المفتاحية: الطّب؛ ابن الجزّار؛ التخصصات الطبيّة؛ طبّ الأطفال؛ طبّ المسنّين.

Abstract :

It is no secret to anyone the virtue of Muslim doctors over the whole world in building the scientific and practical foundations of medicine that we know today, and from which European civilization benefited in building modern medicine, which they developed about these Muslim doctors such as Abu Bakr al-Razi, Ibn Sina and Ibn al-Nafis, who are known because of their fame that transcended ages, but here we are talking about one of the Muslim doctors that we have not heard much about, which is the doctor Ibn al-Jazzar al-Qayrawani, this doctor who lived in Kairouan during the fourth century AH, and who He preceded his time through his findings in medical science, He is the first to decide on medical specialties, and he is the first Muslim doctor to write in medical specialties such as pediatrics and geriatrics, and he also amended and developed old medical laws, and he wrote many works in medical sciences, most of which were lost, and his fame has spread and his fame has exceeded horizons, but this great doctor did not receive much luck from study, and most of his books are still missing, and many of them are still locked in library drawers waiting to be brought to light.

Keywords : Medicine; Ibn al-Jazzar; medical specialties; pediatrics; geriatrics.

- مقدمة:

شهدت مدينة القيروان منذ القرن الثاني للهجرة حركة علمية واسعة، أخرجت العديد من الفقهاء والعلماء والأدباء والأطبّاء، حتّى أضحت إحدى الأقطاب الثقافية في العالم آنذاك والتي شُدّت إليها الرحال من كلّ حدب وصوب، وهذا ما جعل نِتاج هذه الحركة العلمية من مؤلّفات تصلّ إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي والمسيحي، وقد بزغ

من بين أطبّاء القيروان طبيب ماهر، شهد له بمهارته وإتقانه لعمله جلّ من عاصره من أهل القيروان وغيرها، هذا الطبيب الذي أحدث ثورة في عالم الطبّ، جعلت العديد من الأطباء الذين جاؤوا من بعده يسيرون على نهجه، من خلال مؤلفاته الثمينة التي تركها.

بلغت شهرة الطبيب القيرواني ابن الجزّار الآفاق، حتّى أضحى أشهر طبيب ليس في القيروان فحسب بل في جميع أفريقية وبلاد المغرب، بل وزادت شهرته أكثر بعد وفاته، واستنادا لما سبق أمكن لنا هذا التساؤل وهو: كيف ساهم ابن الجزّار القيرواني في النهوض بعلم الطبّ؟ وفيم تتمثّل مساهماته؟ وما هي أشهر مؤلفاته؟

وفي خضم هذا البحث أعانتنا بعض الدراسات التي تناولت حياة ابن الجزّار ومساهماته ومؤلفاته، نذكر منها مقالا علميا للأستاذ علي محمد إدريس والمعنون بـ"التربية الصحية في كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزّار القيرواني"، إضافة إلى مجموعة من كتب ابن الجزّار التي تمّ تحقيقها، مثل كتاب طبّ المشائخ، وكتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم، وكتاب طبّ الفقراء والمساكين.

ولدراسة هذا الموضوع اعتمدنا على مجموعة من المناهج التاريخية، كان المُعتمد فيها سرد النصوص التاريخية واستخلاص النتائج منها، كما اعتمدنا في بعض العناصر على المنهج المقارن، للمقارنة بين بعض الروايات والآراء، إضافة إلى المنهج التحليلي وذلك بغرض تحليل المادة التاريخية المشتّتة واستخراج ما يهمّنا منها في موضوعنا، وأخيرا تهدف دراستنا هذه إلى تسليط الضوء على أحد أعظم الأطباء المسلمين الذي قدّم خدمات جليلة إلى الإنسانية جمعاء من خلال ما تركه من مؤلفات ثمينة، وذلك رغبة منا في منح هذا الطبيب العظيم، الذي لم ينل حظّا وافرا من الدراسة، حقّه من التعريف والإشادة.

1- التعريف بابن الجزّار:

يعتبر الطبيب ابن الجزّار القيرواني من الأطباء المسلمين العظماء الذين أحدثوا ثورة كبرى في مجال الطب، فإليه يعود الفضل في وضع التخصصات الطبية، كما ترك لنا عددا معتبرا من المؤلفات الطبية التي مازالت تدرس في المعاهد الطبية الأوروبية إلى يومنا هذا.

1-1- حياته:

هو أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزّار، ويُكنّى بأبي جعفر، قيرواني الدار مسلم النِّحلة، طبيب وابن طبيب إذ كان والده إبراهيم كحالا، وكذلك عمّه أبو بكر كان طبيبا (ابن جلجل، 1985: 88)، ويعرف بابن الجزّار القيرواني (الحموي، 1993: 187)، وقد كان والده وعمّه من تلاميذ الطبيب البغدادي الشهير إسحاق بن عمران(انظر التعليق رقم1) (ابن أبي أصيبعة، د س: 481)، قال عنه ابن جلجل أنّه: "كان من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم" (ابن جلجل، 1985: 89)، "حسن الفهم لها" (ابن أبي أصيبعة، د س: 481).

عُرِف ابن الجزّار بوقاره ورزانته وترفّعه عن الملذات والدنايا، وقد شهد له بذلك من عاصروه في القيروان، فقد قال عنه ابن جلجل: "وكان قد أخذ بنفسه مأخذا عجيبا في سمته وهديه وقعوده، ولم تحفظ عليه بالقيروان زلّة قط، ولا أخلد إلى لذّة، وكان يشهد الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها" (ابن جلجل، 1985: 89)، كان ابن الجزار شخصا عزيز النفس متنزها، وذلك راجع إلى البيئة العلمية العائلية التي ولد وترعرع فيها، فقد كان يمضي جلّ وقته في القراءة والتأليف أو علاج المرضى وصنع الأدوية وتركيبها، وكان يذهب خلال فصل الصيف إلى رباط المنستير للراحة والاستجمام وربما للقاء بعض المتصوفة والزهّاد (ابن أبي أصيبعة، د س: 481).

كما لم يتقرب قط من الأمراء ولا رجال الدولة، ولا أخذ شيئا من عطاياهم وهداياهم، وهو كما وصفه ياقوت الحموي في قوله: "وكان مع ذلك حَسن المذهب فاضل السيرة، صائنا لنفسه منقبضا عن الملوك ذا ثروة، ولم يكن يقصد أحدا إلى بيته" (الحموي، 1993: 187-188)، إلّا من شخص واحد وهو الأمير العبيدي أبو طالب بن عبيد الله المهدي الذي تربطه به صداقة قديمة، وقد كان يزوره كل يوم جمعة (ابن جلجل، 1985: 89)، كما ذكروا من ترجموا له أنّه لم يقبض ثمن العلاج أو الدواء عن مرضاه، نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئا، وإنّما كلف غلاما له اسمه رشيق والذي كان يجلس في سقيفة على باب داره يعطي فيها للمرضى دواءهم ويقبض عنهم ثمنه (ابن

أبي أصيبعة، د س: 481)، كما عُرِف عنه أنّه كان يداوي الفقراء ويعطيهم الدواء مجّانا (الحموي، 1993: 188).

عاش ابن الجزّار نيّفا وثمانين سنة، قضاها في علاج المرضى وتأليف الكتب وتركيب الأدوية، وقد كان همّ بالرحلة إلى الأندلس ولكن لم يفعل، ولمّا مات وُجِد له أربعة وعشرون ألف دينار، وخمسة وعشرون قنطارا من كتب طبية وغيرها (ابن جلجل، 1985: 89-90)، هذا الرقم وإن كان مبالغا فيه فهذا لا ينفي أنّ ابن الجزّار كان يمتلك ثروة لا بأس بها، خاصة مكتبته التي حوت مئات الكتب الثمينة في الطب وفي الكثير من التخصصات.

لم يتفق المؤرخون على تاريخ محدّد لوفاة ابن الجزّار، كما أنّ المصادر لم تذكر تاريخ مولده أصلا، فقد اكتفى كل من ابن جلجل وابن أبي أصيبعة بقول أنّه مات عن سنّ الثمانين أو نيّف وثمانين سنة، في حين ذكر الصفدي أنّه كان حيّا أيام حكم المعزّ بالله الفاطمي في حدود سنة 350هـ أو ما قاربها (الصفدي، 2000: 132)، وذكر ابن عذاري المراكشي أنّه مات سنة 369هـ/980م (ابن عذاري، 1983: 237)، بينما حدّد حاجي خليفة تاريخ وفاته سنة 400هـ (خليفة: 946)، وتبعه في ذلك عدد من الباحثين، وأمام تضارب الأقوال والروايات حول التاريخ الحقيقي لوفاة ابن الجزّار نرجّح نحن التاريخ الذي ذكره ابن عذاري؛ ذلك أنّ ابن جلجل الذي ألّف كتابه سنة 377هـ، وهو أقدم مصدر ترجم لابن الجزّار، ذكر أنّ ابن الجزّار كان ميّتا حين ألّف كتابه طبقات الأطباء والحكماء سنة 377هـ، واستنادا على ما ذكرنا يمكننا حصر السنة التي ولد في ابن الجزّار وهي ما بين سنتي 285هـ-895م/289هـ-899م، بما أنّه عاش ثمانين أو بضع وثمانين سنة.

1-2- مؤلفاته:

ألّف ابن الجزّار العديد من الكتب أكثرها في الطبّ وبعضها في تخصّصات أخرى كالتاريخ والأدب والفلسفة، وهذا ما أكّده ابن جلجل في قوله: "وله في الطبّ تواليف عجيبة، وكان من أهل الحفظ والتطلّع والدراسة للطبّ وسائر العلوم، وله تواليف في غير الطبّ، كتأليفه التواريخ وتأليفه كتاب الفصول والبلاغات" (ابن جلجل، 1985:

89)، ذكر له ابن أبي أصيبعة نحو سبعة وعشرين مؤلفا، وهي لا تشمل كل تآليف ابن الجزّار، فقد وقع العثور على بعض المخطوطات من تأليفه لم تذكرها المصادر القديمة، وأورد ابن الجزّار نفسه عناوين بعض منها في كتبه الباقية لدينا، كما أنّ كثيرا من المؤلفين القدماء ذكروا عناوين كتب لابن الجزّار لم ترد عن المترجمين له (ابن الجزّار، 2009: 30).

ذكر الدكتور محمد الحبيب الهيلة، محقّق كتاب "سياسة الصبيان وتدبيرهم"، أربعة وأربعين عنوانا لمؤلفات ابن الجزّار، لكنّنا نحن سنكتفي بعرض عناوين المؤلفات التي ذكرها ابن أبي أصيبعة، ونذكر ما هو موجود منها وما هو مفقود:

-الكتب الموجودة: منها ما هو مطبوع ومنها من لازال مخطوطا، وجميعها تتعلّق بالطبّ والاختصاصات الطبية، والصيدلة، وسنعرضها حسب القائمة التي وضعها الدكتوران فاروق عمر العسلي والراضي الجازي، محقّقا كتاب طب المشائخ:

1-كتاب "سياسة الصبيان وتدبيرهم".
2- كتاب "في المعدّة وأمراضها ومداواتها".
3- كتاب "زاد المسافر وقوت الحاضر".
4- زاد المسافر: المقالة السادسة "في الأدواء التي تعرض في آلات التناسل".
5- "كتاب في فنون الطيب والعطر".
6- "رسالة في النسيان وعلاجه".
7- كتاب "الاعتماد في الأدوية المفردة".
8- كتاب "طب الفقراء والمساكين".
9- كتاب "طبّ المشائخ وحفظ صحتهم".
10- "رسالة في الحصى".
11- "رسالة في إبدال الأدوية".

-الكتب المفقودة: لم يتمكن الباحثون، إلى يومنا هذا، من حصْر قائمة هذه الكتب المفقودة من مؤلفات ابن الجزّار، وهي تتعلّق بميادين علمية شتّى وتمثّل موسوعة كاملة (ابن الجزّار، 2009: 34)، وسوف نذكرها كما وردت في كتاب ابن أبي أصيبعة:

1-"البُغية"، وهو حسب ابن أبي أصيبعة كتاب في الأدوية المركّبة.

2- "كتاب العُدّة في طول المدّة"، يقول ابن أبي أصيبعة: "وهو أكبر كتاب وجدناه له في الطبّ".

3- كتاب "قوت المقيم"، ذكر ابن أبي أصيبعة أنّه في عشرين مجلّدا.

4- كتاب "التعريف بصحيح التاريخ"، يقول عنه ابن أبي أصيبعة: "وهو تاريخ مختصر يشتمل على وفيات علماء زمانه، وقطعة جميلة من أخبارهم".

5- رسالة في النفس وذكر اختلاف الأوائل فيها.

6- كتاب "في الفرق بين العلل التي تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها".

7- رسالة في التحذّر من إخراج الدم من غير حاجة دعت إلى إخراجه.

8- رسالة في الزّكام وأسبابه وعلاجه.

9- رسالة في النوم واليقظة.

10- كتاب "مجرّبات في الطبّ".

11- مقالة في الجذام وأسبابه وعلاجه.

12- كتاب الخواص.

13- كتاب نصائح الأبرار.

14- كتاب المختبرات.

15- رسالة في المقعدة وأوجاعها.

16- كتاب المكلّل في الأدب.

17- كتاب "أخبار الدولة"، يذكر فيه ظهور المهدي بالمغرب.

18- كتاب الفصول في سائر العلوم والبلاغات.

19- كتاب "البُلغة في حفظ الصحة".

20- كتاب في الحمّامات.

21- كتاب في نعت الأسباب المولّدة للوباء في مصر وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يُتخوّف منه.

22- رسالة إلى بعض إخوانه في الاستهانة بالموت.

نكتفي بذكر هذه المؤلفات الثمينة لابن الجزّار، آملين في أن يتمّ تحقيق ما هو مخطوط منها، والبحث عن ما هو مفقود.

2- ممارسته للطب:

نشأ ابن الجزّار في أسرة علمية أخرجت العديد من الأطباء، فكان والده وعمّه طبيبان مشهوران، كما أسلفنا، لذا فمن الطبيعي أن يتخصّص ابن الجزّار في الطبّ، حيث أخذ عنهما الطبّ، ثم تتلمذ في شبابه على يد الطبيب المصري إسحاق بن سليمان الإسرائيلي(انظر التعليق رقم2) (ابن أبي أصيبعة، د س: 481)، طبيب الأمراء العبيديّين بالقيروان (ابن جلجل، 1985: 87)، فانكبّ على دراسة الطبّ وممارسته حتّى أصبح طبيبا حاذقا وهو لا يزال شابا، وفتح بيته لمداواة المرضى وتركيب الأدوية والعقاقير الطبيّة، حتّى أصبح مشهورا في القيروان.

بلغت شهرة الطبيب الشاب ابن الجزّار الآفاق، أين استدعاه الأمير العبيدي المنصور(انظر التعليق رقم3) لمداواته، وهنا ارتكب ابن الجزّار خطأ فادحا كاد ينهي مسيرته الطبيّة في بدايتها، وهي قصّة رواها المقريزي (المقريزي، 1996: 90-91) وابن الأثير (ابن الأثير، 1987: 241-242) وهي: "أنّ المنصور خرج متنزّها إلى مدينة جلولاء، وفي طريق عودته أصابه ريح شديد وبرد ومطر، وكثر الثلج فمات جماعة ممن معه، واعتلّ المنصور علّة شديدة، ووصل المنصورية، فأراد عبور الحَمّام فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي عن ذلك، فلم يقبل، ودخل الحمام فَفَنِيَت الحرارة الغريزية منه، ولازمه السَّهر، فأخذ طبيبه يعالج المرض دون السّهر، فاشتدّ ذلك على المنصور وقال لبعض خواصه: "أما في القيروان طبيب غير إسحاق؟"، فأُحضِر إليه شاب من الأطباء يقال له: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزّار، فجمع له أشياء مخدِّرة، وكلَّفَهُ شَمَّها، فنام، وخرج وهو مسرور بما فعله، فجاء إسحاق ليدخل على المنصور، فقيل له إنّه نائم، فقال: "إن كان صُنِع له شيء ينام منه فقد مات"، فدخلوا عليه فإذا هو ميّت، فدفن في قصره، وأرادوا قتل ابن الجزّار الذي صنع له المنوّم، فقام معه

إسحاق وقال: "لا ذنب له، وإنّما داواه بما ذكره الأطباء، غير أنّه جهل أصل المرض، وما عرَّفتموه، وذلك أنَّني في معالجته أقصد تقوية الحرارة الغريزية، وبها يكون النوم، فلمّا عولج بما يطفئها علمت أنّه قد مات"(ابن الأثير، 1987: 241-242).

يرى الدكتور سلمان قطابة محقّق كتاب المعدّة وأمراضها، أنّ القصة السابقة غير صحيحة، وأنّها مكيدة دبّرت لإجهاض مسيرة ابن الجزّار الطّبية، فقد كثر حسّاده وعلى رأسهم أستاذه إسحاق بن سليمان، الذي دبّر هذا الأمر لضرب سمعة ابن الجزّار كطبيب، معتمدا في ذلك على حقائق طبيّة وتاريخية، بل ويذهب إلى القصة كلّها مختلقة من قبل زملاء ابن الجزّار الذين أزعجتهم شهرته، فأرادوا تشويه سمعته المهنية.

ونحن من وجهة نظرنا نرى أنّ هذه القصّة صحيحة إلى حدّ ما، فابن الجزّار يبقى بشرا يُخطئ ويُصيب، وقد ارتكب هذا الخطأ الطبيّ نتيجة جهله بمرض المنصور أوّلا، وكذلك لقلّة خبرته الطبيّة ثانيا، بما أنّه كان لا يزال طبيبا شابّا، وهناك رواية أخرى أوردها المالكي في كتابه رياض النفوس من شأنها أن تدعم طرحنا، فيقول المالكي عند ترجمته لأبي بكر يحيى الهوّاري المؤدّب(انظر التعليق رقم 4) في حادثة جرت بينه وبين الطبيب ابن الجزّار: "ومرض مرضة شديدة أشفى فيها على الموت، قال: فَأَرَوْا ماءه لابن الجزّار الطبيب -وكان ابن الجزّار على خلاف السُّنّة- فلمّا رآه قال: ليس يغلق الخمسة أبدا، هو ميّت، فلمّا رجع الرسول من عنده قال له المؤدّب: ما قال لك ابن الجزّار: قال: فسكت الرسول، فقال له أقال لك أني أموت من هذه العلّة؟ فقال له: يا مؤدب لا تسأل عن هذا. فقال لهم: اشتروا لي لحم بقري وباذنجانا وقرعا واعملوا لي سَكْبَاجا مُحْكَما، واشتروا لي خبزا نقيّا، فعملوا له ذلك، ثم أكل الجميعَ مع الخبز، ثم قال لهم: دثّروني، فعرق عرقا عظيما، فلمّا كان العصر أفاق من غمرته ووجد الراحة، فقال لهم: أعطوني قَرْقِي وعصاي، فأعطوه ذلك، فمضى إلى دار ابن الجزّار، فلمّا سمع ابن الجزّار حِسَّ الهواري طلع الدرج وردّ الباب على نفسه ووقف خلف الباب حتى طلع الهواري فقال: أين

هذا الجزّار؟ ابن الجزّار الذي يقطع في حكم الله عزّ وجلّ ويقطع عليّ بالموت؟ وحقّ هذه القِبلة لو وجدته جالسا لجعلت عصاي هذه بين أذنيه، قولوا له: يا كذّاب هذا أنا صحيح سويّ، بهذه العصا أحارب الدجّال، ثم مضى" (المالكي، 1994: 430-431).

هناك من يرى هذه القصة تحاملا على الطبيب ابن الجزّار من قبل المالكيين باعتباره شيعيا، ونحن نرى أنّه كان لابن الجزّار هفوات طبية وهذه من بينها، فابن الجزّار لم يستطع علاج الهواري المؤدّب، لأنّه لم يفحصه عيانا وإنّما أرسله له ماؤه فقط، أي أَرَوْه بوله فقط، لذلك ربّما أخطأ ابن الجزّار في تشخيص مرض الهواري وظنّ أنّه مصاب بمرض خطير لا يعيش بعده أكثر من خمسة أيام.

يمكننا القول في الأخير أنّ حادثة موت المنصور العبيدي كانت منعرجا حاسما في مسيرة ابن الجزّار الطبيّة، وهي ما جعلته ينكبّ أكثر على دراسة الطبّ حتّى توصّل إلى أنّ الطبّ يجب أن ينقسم إلى تخصّصات، ولا يجب على الطبيب أن يخلط بين إصابة عجوز بمرض، وإصابة طفل بنفس المرض، فطريقة العلاج يجب أن تكون مختلفة في كل حالة، وهذا ما جعله يُقِرُّ التخصصات الطبيّة، ويؤلف كتابيه الشهيرين: طب المشايخ، وسياسة الصبيان وتدبيرهم.

3- كتابه سياسة الصبيان وتدبيرهم:

يعتبر كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم من أثمن الكتب التي أُلّفت في تاريخ الطبّ الإنساني، باعتباره المصنّف الفريد من نوعه الذي ألّف لطبّ الأطفال، وذلك حسب الكتب التي بين أيدينا، وحسب ما ذكره ابن الجزّار نفسه في مقدمة كتابه هذا، حيث يقول: "ولم أرَ لأحد من الأوائل المتقدمين المرضيين في ذلك كتابا كاملا شافيا، بل رأيت ما يُحتاج من علمه ومعرفته متفرّقا في كتب شتَّى وأماكن مختلفة ممّا لعلّ بعض الناس قد عرف بعضه وجهل بعضه...، فلمّا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا رأيت أن أجمع المتفرّق من ذلك في الكتب الكثيرة، وألّفت بعضه إلى بعض في هذا الكتاب" (ابن الجزار، 2009:

57)، ونرى هنا أنّ ابن الجزّار قد اهتدى إلى فكرة تأليف مصنّف كامل خاص برعاية الأطفال الصحيّة وسلامتهم منذ ولادتهم حتى بلوغهم، وهي فكره لم يسبقه إليها أحد من الأوائل، حسب قوله.

بينما يذكر الأستاذ محمد الحبيب الهيلة، محقّق كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم، أنّ هناك من سبق ابن الجزّار في التأليف في مجال طبّ الأطفال، وهو الطبيب العربي المسلم أبو بكر الرازي(انظر التعليق رقم5) المتوفي سنة 313هـ/925م، الذي ألّف رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم، كما يذكر أنّ النسخة العربية من هذا الكتاب مفقودة، لكن ترجمتها القديمتين إلى اللّاتينية والعبرية حفظتا لنا محتواه، حيث ترجم كاملا إلى الإنجليزية، ونشرت ترجمته في مجلة طب الأطفال الأمريكية نوفمبر 1971 (العدد 5من المجلد 122)، وقد عرض الأستاذ الهيلة مقارنة موجزة بين كتاب الرازي وكتاب ابن الجزّار، توصلنا من خلالها أنّ ابن الجزّار ربّما لم يطّلع أو يسمع بمؤلف الرازي، وهذا ما يفسّر قوله، الذي ذكرناه آنفا، أنّه لم يسبق لأحد من قبله تأليف مصنّف كامل في طب الأطفال.

يقدّم لنا ابن الجزّار في كتابه سياسة الصبيان القواعد الصحية لرعاية الأطفال وسلامتهم، ويعطينا فكرة عن أمراض الأطفال التي كانت متفشّية، وعن نوع الأدوية والعلاج، وكيفية حفظ صحة الأطفال بصورة متكاملة، ويحتوي هذا الكتاب على اثنين وعشرين بابا، فالأبواب الستّة الأولى تحدّث فيها عن حفظ صحّة الطفل وتدبيره عند الولادة مع شروط المرضعة وأنواع اللّبن وطُرُق تحسينه، فحسب ابن الجزّار تبدأ تربية الطفل من قبل الولادة وذلك باختيار امرأة صالحة "خيّرة صحيحة البدن" (ابن الجزار، 2009: 59)، ثم انتقل إلى الأمراض التي تَعْرَض للصبيان، فتناول فيها موضوع مداواتها على ترتيب أعضاء الجسم من الرأس إلى أسفل الجسم، وذلك من الباب السابع إلى الواحد والعشرين، أمّا الباب الثاني والعشرين فقد تحدّث فيه عن طِباع الصبيان

وتربيتهم وتأديبهم، حيث يبيّن ابن الجزّار طبيعة الطفل الأصلية والعادة المكتسبة، ويؤكد على أهمية تعويد الطفل على العادات الحسنة حتى إذا اتفقت الطبيعة والعادة الحسنة في نفسه وتمكّنتا استحال قلعهما (إدريس، 1986: 182).

4-كتابه طبّ المشايخ وحفظ صحّتهم:

يتطرّق ابن الجزّار في كتابه هذا إلى حفظ صحّة الشيوخ ويصف فيه أدوية ونصائح طبيّة اتّفق عليها الأطبّاء القدامى، وهي أدوية "جرّبها وحمدها"، حسب تعبيره المعتاد، فيعطينا أولا في مقدمة كتابه نصيحة طبية من عمل بها استطاع الحفاظ على صحته إلى آخر عمره فيقول: "إنّ العلم بحفظ الصحة على الأصحّاء على حسب ما توجبه أسنانهم ومزاجات أبدانهم وطبائع بلدانهم وحاجاتهم باب عظيم الخطر، جليل القدر في صناعة الطبّ، وذلك أنّ الإنسان إذا علم ذلك وعَمِلَ بما عَلِمَ أمكنه أن يصير إلى حدّ الشيخوخة القصوى وجميع جوارحه سليمة من الأمراض والأوجاع، ويبلغ أقصى العمر الطبيعي وهو مُعزًّا من الآفات" (ابن الجزّار، 2009: 39)، في إشارة منه أنّ من أراد حفظ صحته وطولٍ في عمره يجب عليه أن يحافظ صحة جسمه منذ الشباب حتى إلى آخر شيخوخته.

يعطينا ابن الجزّار في كتابه هذا مجموعة من النصائح التي من شأنها أن تحفظ صحة الإنسان حتى لو بلغ أرذل العمر، فأشار أولا "أنّ الواجب في حفظ الصحة أن تكون أوّلا الرياضة، ثم يكون من بعد ذلك الطعام والشراب ومن بعد ذلك النوم ومن بعد النوم الجماع" (ابن الجزّار، 2009: 40)، ومن جملة النصائح التي قدّما أيضا أن يكون الهواء المحيط بالأبدان جيّدا، كما أكّد أنّ على الإنسان أن يولي عناية فائقة لطعامه وشرابه، وأن يحذر من الامتلاء من الطعام ومن الطعام الرديء، وأن يكون لتناول الغذاء وقت محدّد.

ذكر ابن الجزّار أيضا، في كتابه هذا، أنّ من أسباب حفظ الصحة الاعتدال في النوم واليقظة، فالأبدان لا بدّ لها من سكون وراحة أثناء الليل وذلك بعد الجهد والتعب أثناء النهار (ابن الجزّار، 2009: 54)، كما ذكر أنّ للرياضة منفعة شديدة لأبدان الشيوخ الأصحاء، فالصحة تُستدام بالحركة وبالامتناع من الشبع وترك التكاسل (ابن الجزّار، 2009: 55)، يؤكد ابن الجزّار كذلك على عدم الاستحمام بعد الطعام والشراب مباشرة، وذكر أنّ الاستحمام بعد تناول الطعام يُحدث ضررا كبيرا على أبدان الأصحاء والمرضى (ابن الجزّار، 2009: 60).

وفي الأخير يوصي ابن الجزّار، في هذا الكتاب، بإصلاح أخلاق النفس، ويحثّ على الضحك وعلى الاستماع إلى الموسيقى والابتعاد عن الهموم (ابن الجزّار، 2009: 62)، ولا شكّ أنّ جميع هذه النصائح يقرّها الطبّ الحديث وأنّها مازالت صالحة إلى يومنا هذا، بعد مرور أكثر من ألف عام على وفاة ابن الجزّار.

اعتمد ابن الجزّار في كتابه طب المشايخ وحفظ صحّتهم على مجموعة من المصادر القديمة، وقد صنّفها الدكتور محقق كتاب طب المشايخ إلى صنفين هما: صنف أعجمي ينتمي إلى الثقافة اليونانية، وأبزر المصادر اليونانية نجد جالينوس(انظر التعليق رقم6)، أبقراط(انظر التعليق رقم7)، أفلاطون، أمّا الصنف الثاني فهو عربي إسلامي أو عربي مسيحي، نذكر منها الطبيب يحي بن ماسويه(انظر التعليق رقم8)، إضافة إلى أبو بكر محمد بن أبي خالد بن الجزار وهو عمّ ابن الجزّار.

-خاتمة:

وفي الأخير يمكننا أن نخلص إلى مجموعة من النتائج لعلّ من أهمّها: أنّ ابن الجزّار القيرواني كان ولازال من أعظم أطباء البشرية، فقد كرّس نفسه وعمره في علاج المرضى وتركيب الأدوية والتأليف، حيث خلّف عددا لا يستهان به من المؤلفات أغلبها في

الطبّ، كذلك لطالما عُرف ابن الجزّار بأخلاقه السّامية وجانبه الإنساني الرّاقي، حيث كان دائم التفكير والمراعاة لأفراد الطبقات الفقيرة والأطفال وكبار السن والمسافرين والمستضعفين من الناس، فهو لم يتردّد في مساعدتهم اطلاقا، بل وألّف بعض المصنفات التي تعين هؤلاء لحفظ صحتهم، وهذا هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الأطباء.

حوّل ابن الجزّار اهتمامه لطبقة الشيوخ والمسنّين، فأصدر كتابه طبّ المشائخ وحفظ صحتهم، ذاكرا فيه الأمراض التي تصيب الشيوخ وعلاجها، كما وجّه اهتمامه أيضا إلى طبّ الأطفال، فألّف كتابه سياسة الصبيان وتدبيرهم، حيث ذكر فيه الأمراض التي تعترض الأطفال وعلاجها، وفي الأخير يمكننا القول أنّ الطبيب ابن الجزّار القيرواني لم يحظ بذلك الاهتمام من قبل الباحثين كالاهتمام الذي حظي به الكثير من الأطباء المسلمين كابن سينا والرازي وغيرهم، كما أنّ أغلب مؤلفاته قل طالها النسيان بل أنّ معظمها قد فُقد، لذلك نوجّه من هذا المنبر رسالة إلى كل الباحثين للبحث والتنقيب عن مؤلفات ابن الجزّار التي لازالت حبيسة أدراج المكتبات، وذلك بتحقيقها وإفادة البشرية بما تحتويه بين طيّاتها.

التعليقات:

-**التعليق 01:-إسحاق بن عمران**: طبيب مشهور وعالم مذكور، لقّب بسُمِّ الساعة، وإسحاق بن عمران، عكس ما يدل عليه اسمه، فهو مسلم النحلة بغدادي الأصل (ابن أبي أصيبعة، د س: 478)، دخل القيروان في دولة زيادة الله بن الأغلب، كان طبيبا حاذقا مميّزا بتأليف الأدوية المركّبة، وبه ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة، ألّف كتبا منها: كتابه المعروف بنزهة النفس، وكتابه في داء المالخونيا لم يُسبَق إلى مثله، وغيرها من الكتب، مات مصلوبا بالقيروان (ابن جلجل، 1985: 85-86).

2-**إسحاق بن سليمان الإسرائيلي:** طبيب فاضل بليغ عالم مشهور بالحذق والمعرفة، جيّد التصنيف عالي الهمّة، وهو الذي انتشرت معرفته بالإسرائيلي، وهو من أهل مصر (ابن أبي أصيبعة، د س: 479)، خدم عبيد الله الشيعي وأولاده بصناعة الطبّ، وعاش مئة سنة ونيّفا،

وله تآليف لم يسبقه أخد إلى مثل بعضها، ككتابه في البول، وغيرها من المؤلفات (ابن جلجل، 1985: 87).

-**التعليق 03-المنصور العبيدي:** هو أبو الطاهر إسماعيل بن محمد القائم بن عبيد الله المهدي، المنصور بنصر الله، ولد بالمهدية سنة 303هـ، كان فصيحا بليغا حاد الذهن، حاضر الجواب، بعيد الغور، جيد الحدس، تولى حكم آل عبيد بعد وفاة أبيه القائم، توفي سنة 341هـ (المقريزي، 1996: 88-89).

-**التعليق 04:-أبو بكر يحيى الهوّاري:** هو أبو بكر يحيى بن خلفون الهواري المؤدّب، كان من أَقْرَإِ أهل زمانه، وكان فاضلا منتصرا للمذهب المالكي، توفي سنة 347هـ –رحمه الله- (المالكي، 1994: 425).

-**التعليق 05:-أبو بكر الرّازي:** هو الأستاذ الفيلسوف أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، من الأئمة في صناعة الطب، من أهل الرّيّ، ولد سنة 251هـ/865م، كان كثير الأسفار وافر الحكمة، صاحب مروءة وإيثار ورأفة بالمريض، واسع المعرفة، تولّى تدبير الرَّي، ثم رياسة أطباء البيمرستان المقتدري في بغداد في دولة المكتفي، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب الحاوي في صناعة الطّب، كتاب الكافي، كتاب الفاخر في علم الطب وغيرها (الرازي، 1985: 11-13).

- **التعليق 06:-أبقراط:** يلقّب بأبقراط الحكيم، كان من أعظم حكماء وأطباء عصره، ولد في أسرة من أشرف وأعرق الأسر اليونانية من آل اسقليبيوس والتي كانت تقطن بجزيرة كوس، المشهورة باسم قُوْ في المصادر العربية، وهي جزيرة في بحر إيجة، حيث كانت أسرته تتوارث صناعة الطبّ أبا عن جدّ (غالب، 1986: 10-12)، كان أبقراط فاضلا متألّها ناسكا، طوّافا في البلاد يعالج الناس، كما يعتبر صاحب الفضل الأكبر في تحرير الطبّ من الدين والفلسفة، وإرشاد المريض إلى ضرورة الاعتماد الكلي على العلاج الطبي، وهو من أذاع صناعة الطبّ في جميع الأرض بعدما كانت متوارثة بين قلّة من الناس من آل اسقليبيوس، والتي أوشكت على الزوال (ابن أبي أصيبعة، د س: 43-44)، توفي سنة 357 ق.م (ابن جلجل، 1985: 16-17).

- **التعليق07:-جاليونس**: (129م-199م أو 218م) ولد في مدينة بَرْجامُون (برغامس) في آسيا الصغرى، ودخل روما في عهد الإمبراطور أنطونينوس بيوس (عطية، 1999: 13)، برع في الطبّ والفلسفة وجميع العلوم الرياضية، وجدّد من علم أبقراط وشرح كتبه، وكانت له بروما مجالس عامية خطب فيها وأظهر من علمه بالتشريح، وله تآليف عديدة في مختلف العلوم (ابن

جلجل، 1985: 41-42)، اعتبر جالينوس خاتم الأطباء الكبار المعلمين وهو الثامن منهم، ولم يكن يدانيه أحد من أهل عصره في صناعة الطب (ابن أبي أصيبعة، د س: 109).

-**التعليق 08:-يحيى بن ماسويه:** أو يوحنّا بن ماسويه، مسيحي المذهب سرياني، طبيب ذكي فاضل خبير بصناعة الطب، وله كلام حسن وتصانيف مشهورة، وكان مبجّلا حظيا عند الخلفاء والملوك (ابن أبي أصيبعة، د س: 246)، وهو من أطباء مدرسة جنديسابور، هاجر إلى بغداد في أول القرن 3هـ، وهناك أقام بيمارستانا، وقد كلّفه الخليفة هارون الرشيد بترجمة الكتب الطبية القديمة، ووضعه أمينا على الترجمة، له عدّة تواليف ثمينة منها: كتاب البرهان، وكتاب البصيرة، وكتاب الكمال والتمام وغيرها (ابن جلجل، 1985: 65).

قائمة المصادروالمراجع:

1-ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي، شر وتح: نزار رضا، (دس). عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت: دار الكتب العلمية.

2-ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري، (1987). الكامل في التاريخ (المجلد 7)، مر وتص: محمد يوسف الدقاق. بيروت: دار الكتب العلمية.

3-إدريس علي محمد، (1986). «التربية الصحية في كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار القيرواني». **مجلة كلية التربية**، ص.ص. 181-197.

4-ابن الجزّار أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، (2009). سياسة الصبيان وتدبيرهم، تح: محمد الحبيب الهيلة، تونس: بيت الحكمة.

5-ابن الجزّار، (2009). طبّ المشائخ وحفظ صحتهم، تح: فاروق عمر العسلي والراضي الجازي، تونس: بيت الحكمة.

6-ابن جلجل أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي، (1985). طبقات الأطباء والحكماء، تح: فؤاد سيد، ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة.

7-الحموي ياقوت بن عبد الله، (1993). معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (المجلد 1)، تح: إحسان عباس، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

8-خليفة حجي، (دس). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج2، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

9-الرازي أبو بكر محمد بن زكريا، (1985). منافع الأدوية ودفع مضارها، بيروت: دار إحياء العلوم.

10-الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك، (2000). الوافي بالوفيات (المجلد 6)، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

11-عطية أحمد عبد الحليم، (1999). جالينوس في الفكر القديم والمعاصر، القاهرة: دار قباء.

12-غالب مصطفى، (1986). أبقراط، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

13-المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، (1994). رياض النفوس (المجلد 2). تح: بشير البكوش، ط2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

14-المراكشي أبو العباس بن عذاري، (1983). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (المجلد 2)، بيروت: دار الثقافة.

15-المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، (1996). اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا (المجلد 1)، تح: جمال الدين الشيال، ط2. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.